

بَحْث

خصائص الصورة في الخطاب القصصي القرآني في قصة صاحب الجنتين

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

الأستاذ المشارك

كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض - المملكة العربية السعودية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل سبحانه: {نَحْنُ نُقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} (١) ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن أحمد الله تعالى على التنعم و الاستغلال في جنان القرآن الكريم من البحث الذي سيتناول - بإذن الله تعالى - خصائص الصورة في الخطاب القصصي القرآني عامة، وسيقف بمزيد من التفصيل على خصائص الخطاب في قصة صاحب الجنتين من خلال الآيات الكريمة في سورة الكهف، وهي قوله سبحانه: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْثَلًا وَلَمْ تَنْظِلْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرْوَشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)} (٢).

مقسما هذا البحث إلى: مقدمة، وفصلين، وخاتمة، وسيكون توزيع الفصلين على النحو التالي:

١- الفصل الأول: خصائص الخطاب القصصي القرآني، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تنوع السياقات، وأثره في الخطاب القصصي القرآني.

(١) سورة يوسف: ٣

(٢) سورة الكهف ٣٢-٤٤

المبحث الثاني: تنوع السياقات، وأثره على الاصطفاء اللفظي.

٢- الفصل الثاني: الصورة في الخطاب القصصي في قصة صاحب الجنتين، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الجوانب الفنية في الخطاب القصصي.

المبحث الثاني: آليات الحجاج، والجوانب الوظيفية في الخطاب القصصي.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول: خصائص الخطاب القصصي القرآني

المبحث الأول: تنوع السياقات، وأثره في الخطاب القصصي القرآني

جاء في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم "فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على سائر خلقه"^(٣)، ومن هنا يحسن الانطلاق من الحديث على تميّز السرد القرآني، وعلى خصائص الخطاب القصصي القرآني الفريد، الذي شاء الله تعالى " بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير. "^(٤)، مشيراً أيضاً إلى تنوع السياقات التي ورد فيها الخطاب القصصي القرآني، من خلال عرض أبرز الخصائص السياقية للخطاب القصصي القرآني، ومنها:

١- الإيجاز:

مما يميز الخطاب القصصي القرآني الإيجاز في عامة قصصه، إذ لا تكاد القصة تتجاوز الصفحة أو الصفحتين، وفي الكثير من القصص لا يصل طول الخطاب القصصي في القصة الواحدة إلا عدة أسطر من الصفحة، إلا ما نجد من إطناب في مثل قصة يوسف عليه السلام.

وهذا الإيجاز مما يؤكد التركيز على مضمون القصة، لقرب البداية بالنهاية، في تسلسل موجز أخاذ. يقول الجاحظ: " درجت الأرض من العرب والعجم على إيثار الإيجاز، وحمد الاختصار، وذم الإكثار والتطويل والتكرار، وكل ما فضل عن المقدار"^(٥). ويشير الجاحظ في موضع آخر إلى حوار دار بين المفضل وأحد الأعراب؛

(٣) ينظر: شعب الإيمان ٥٠١/٣، ومعجم ابن عساکر ٧١٣/٢١، والإبانة الكبرى ٢٢٧/٥

(٤) تأويل مشكل القرآن: ١٤٩

(٥) الرسائل الأدبية: ٢٩٥

فيقول: " قال لي المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير حطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد" (٦). وحول أهمية الإيجاز، وعدم تجاوزه إلى غيره متى ما كانت الوظيفة الكلامية تتطلبه، يقول "جعفر البرمكي...: وإذا كان الإيجاز كافيًا كان الإكثار عيبًا" (٧). ونقف على نص آخر حول إيمان البلغاء بأهمية الإيجاز؛ يقول فيه العسكري: " وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتّابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا" (٨).

٢- السكوت عن بعض التفاصيل:

ومما يدخل في الإيجاز مما يدخل في صلب الخصائص الفنية للخطاب القصصي القرآني، إذ إن المتأمل في القصص القرآني يرى كيف أن أحداث القصة تركز على الجانب الأهم، دون الدخول في التفاصيل التي لا تؤدي المراد من الهدف من القصص القرآني،

٣- تكرار القصة:

التكرار من الخصائص البينة في الخطاب القصصي القرآني، تكرار متناسق، إذ يعرض الخطاب فيها في كل مرة من زاوية مغايرة للزاوية الأخرى؛ فالخطاب فيها يرد بالقدر الكافي للغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه، من خلال عرض الخطاب من بداية

(٦) البيان والتبيين ١ / ٩٩

(٧) عيون الأخبار ٢ / ١٩٠

(٨) الصناعتين: الكتابة والشعر: ١٧٣

القصة تارة، ومن وسطها تارة ثانية، ومن ختامها تارة أخرى، مظهرا ذلك الخطاب التفاصيل من جانب، دون جانب حسب ذلك الورود^(٩).

يجلّي ذلك الطاهر ابن عاشور بقوله: "وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى. كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعت المناسبات إلى أن وقف خطيبا في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة: إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته. وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي. ثم تحصل معه مقاصد أخرى"^(١٠).

٤ - خاتمة القصة:

من المنصوص عليه لدى النقاد أن "الخاتمة في علاقة عضوية بمختلف عناصر البنية النصية، وخاصة الفاتحة، ولذلك يهتم المؤلفون بالاختتام اهتمامهم بالابتداء. ويبدو ذلك جليا في موقف (مارسيل بروس) الذي صرّح في إحدى رسائله بأنه كتب الفصل الأخير من الجزء الأخير من روايته (بحثا عن الزمن الضائع) إثر كتابته الفصل الأول من الجزء الأول. والمؤلف عامة يوكل للخاتمة وظائف لا تقتصر على إشعار القارئ بأن القصة المروية قد شارفت النهاية"^(١١).

من هذا المقتبس من (معجم السرديات) نشير إلى خاصية تميز بها الخطاب القصصي القرآني من حيث إغلاق قصصه بالعبارة من ورود تلك القصة؛ من نحو قوله

(٩) ينظر: السرد القرآني، خصائصه وتقنياته: ٥

(١٠) التحرير والتنوير ١ / ٦٨

(١١) معجم السرديات (خاتمة): ١٦٦

تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} (١٢)، التي تكررت في ختام الخطاب القصصي في سورة الشعراء وحدها ثماني مرات؛ في آياتها الثامنة، والسابعة والستين، والثالثة بعد المئة، والحادية والعشرين بعد المئة، والتاسعة والثلاثين بعد المئة، والثامنة والخمسين بعد المئة، والرابعة والسبعين بعد المئة، والتسعين بعد المئة؛ مما يسير إلى الهدف من ورود القصة القرآنية المتمثل في خطابها الخاتم، وهو من تفسيرات المثاني الواردة في قوله تعالى: {مُتَشَابِهًا مَثَانِي} (١٣)، حيث يقول الزركشي: "وإنما سُمي القرآن كله مثاني لأن الأنباء والقصص تُثني فيه" (١٤).

٥- الصدق الواقعي:

الصدق مما يختص به الخطاب القصصي القرآني دون غيره من القصص (إلا ما كان من صحيح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فالصدق الواقعي ملازم للخطاب القصصي القرآني؛ انطلاقاً من كونه جزءاً من القرآن الكريم الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (١٥)، فمع عنصر التشويق الفني الذي يملك المتلقي للخطاب القصصي القرآني، مع ذلك يعضده ويزيده تشويقاً وإيمان المتلقي لذلك الخطاب أن الخطاب في غاية الصدق الواقعي.

وهذا كفيل في تلقي المخاطب ذلك الخطاب بروح التعايش الكامل، والاندماج غير المتناهي مع أحداث ذلك الخطاب القصصي القرآني الفري

(١٢) سورة الشعراء الآيات: ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠

(١٣) سورة الزمر: ٢٣

(١٤) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٤٥

(١٥) سورة فصلت: ٤٢

المبحث الثاني: تنوع السياقات، وأثره على الاصطفاء اللفظي

هنا سيركز البحث على أثر التنوع السياقي للخطاب القصصي القرآني في اصطفاء اللفظ القرآني على غيره من الألفاظ المرادفة، أو المقاربة للفظ المصطفى المختار، متحدثا عن صيغة اللفظ المصطفى، وتركيبه، ومن ذلك تعدد الطرق التي وردت فيها الشخص في الخطاب القصصي القرآني، فمن ذكر الشخص باسمه الصريح، كما هو الحال في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في عامة قصصهم، إلى ذكره بلقبه ووصفه بالنبوة أو الرسالة، إلى غير ذلك من التنوع الأسلوبي في ذلك الخطاب، و ذلك كله خطاب بيّن واضح، يُذكر فيه الاسم حال كان ذكر الاسم مهما، ولا يتطلب ذكر الاسم الصريح في حال كان الخطاب مقتصرًا على الوصف، فالسياق في الخطاب هو السياق الأنسب، وهو المقام الأخرى في مقام البلاغة، ومن التنوع السياقي للخطاب القصصي القرآني ما يلي:

١- التعبير بالعلم:

من الملاحظ في الخطاب القصصي القرآني شيوع ظاهرة العلم في حال كان السياق متناولاً أشخاص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن لدن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، مروراً بمن بينهما من الأنبياء المذكورين بأسمائهم في القرآن الكريم عليهم جميعاً الصلاة والسلام، في تلك الخطابات كلها نجد الحضور الملائم في ذلك الخطاب القصصي القرآني، ومثل ذلك حضور الأشخاص الذين يُراد النص عليهم بأعلامهم؛ مثل الرجل الجلل الحكيم (لقمان الحكيم) عليه السلام؛ في مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} (١٦).

٢- الوصف:

يُعبّر في بعض السياقات الواردة في الخطاب القصصي القرآني عن أشخاص القصة، ولا سيما أبطالها بالوصف المناسب لذلك الخطاب، دون التصريح باسم ذلك الشخص، فمن وصف يعقوب عليه

السلام بوصف الأبوة؛ في مثل قوله تعالى: { وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُقِنُّدُونَ } (١٧)، إلى وصف البنوة الحانية؛ في نحو ما خاطب به إبراهيم أبو الأنبياء بنيه عليهم جميعاً الصلاة والسلام: { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (١٨)، ومع ورود صفة البنوة للجمع؛ يكون الوصف بالابن حال إفراده؛ مثل الوصف الوارد في حوار نوح عليه السلام ابنه وشفقته عليه، { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } (١٩)، ومن تلك الأوصاف أيضاً الوصف بالأخوة جمعاً وإفراداً؛ في مثل قوله تعالى: { وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } (٢٠)، وقوله سبحانه في موقف الأخ العصيد المؤازر: { قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } (٢١)، إلى الوصف بالرجولة المادحة، الرجولة المؤمنة؛ في مثل قوله تعالى: { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } (٢٢)، ومن الأوصاف الواردة في الخطاب القصصي القرآني الوصف بالاسم الوظيفي تركيزاً على المنصب، ولفناً للأنظار إلى مقتضيات ذلك المنصب، إما استعطافاً في مثل قوله تعالى: { فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا

(١٧) سورة يوسف: ٩٤

(١٨) سورة البقرة: ١٣٣

(١٩) سورة هود: ٤٢

(٢٠) سورة يوسف: ٥٨

(٢١) سورة يوسف: ٩٠

(٢٢) سورة غافر: ٢٨

بِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} (٢٣)، وإما استعظاما بما لا يليق صدوره من صاحب المنصب أو صاحبه: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (٢٤)، ومن أظهر الاستنكار المكتسب من الصفة في الخطاب القصصي القرآني ما ورد في الحديث النفسي لقاتل أخيه؛ من حيث تكرار وصف الأخوة الذي كان بمثابة السياط التي تلهب الظهر، وتذكر بالجُرم، وتستحضر الصورة بترداد وصف اللُحمة بين القاتل والمقتول: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} (٢٥)، وهو ما تجلّى فيه الأسلوب القرآني البلاغي بالتعبير المظهر (أخيه/ أخى) محل المضمر؛ لعظيم الأمر، وفداحة الخطب لقيامه بقتل {أَخِيهِ} (٢٦)، ومن الظواهر في الخطاب القصصي القرآني ورود الصفة للتركيز مصدر القول في نحو قصة طالوت وجالوت: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا} (٢٧)؛ إذ التركيز على وصف النبوة؛ أيًا كان اسم ذلك النبي، ومن ذلك الوصف باليتم مما يسלט الضوء على أبرز ما في القصة من الضعف البشري مع العناية الإلهية المحيطة بالمتلبسين بتلك الصفة: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} (٢٨)، ويأتي التعبير في الخطاب القصصي القرآني بالوصف إجلالا

(٢٣) سورة يوسف: ٨٨

(٢٤) سورة يوسف: ٣٠

(٢٥) سورة المائدة: ٣٠، ٣١

(٢٦) ينظر مثلا: خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: ٢٤١

(٢٧) سورة البقرة: ٢٤٧

(٢٨) سورة الكهف: ٨٢

للموصوف، وبيانا لرجاحة عقله، وصواب رأيه، في مثل قوله تعالى: {فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (٢٩).

٣- تعاضد العلمية والوصف:

ومن الخطابات القصصية القرآنية ما تظهر فيه ثنائية الجمع بين العلمية والوصف في سياق واحد؛ في مثل قوله تعالى: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَدِّبُونَ} (٣٠)، ونحو قوله سبحانه: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي} (٢٩) هَارُونَ أَخِي} (٣١)، ومن الملاحظ التفاوت في أسلوب التقديم والتأخير بين الصفة والعلم في السياقين؛ وهو مدعاة لمزيد نظر حول السر البلاغي في ذلك، أتساءل وإن لم يسعفني الوقت للوقوف على جوابه.

٤- الإبهام:

وأعني به التنكير الذي المقصود منه التركيز على مضمون الخطاب القصصي لا على الشخص القائم به، إذ ليس الخطاب متوجها إلى المتحدث بقدر توجهه إلى ذات الحديث، وهذه ما نراه في العديد من الآيات القرآنية الكريمة؛ من نحو قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} (٣٢)، فالتركيز على أنه شاهد من الأهل أيًا كانت درجة قرابته من امرأة العزيز، ومن ذلك توجيهه الألفاظ إلى الأذان والإشهار

(٢٩) سورة يوسف: ٨٠

(٣٠) سورة القصص: ٣٤

(٣١) سورة طه: ٢٩، ٣٠

(٣٢) سورة يوسف: ٢٦

بالسرقة، لا إلى المؤذن ذاته؛ في قوله تعالى: {ثُمَّ أَدَّأَنَّ مُؤَذِّنًا أَتَيْتَهَا الْعِيزُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} (٣٣)، ونحو ذلك من العناية بالحدث لا الشخص التركيز على القول لا القائل في الحوار الذي كان في الاجتماع الكيدي ليوسف عليه السلام من قبل إخوته -غفر الله لهم- في قوله تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} (٣٤)، وقد يتعالى مستوى التنكير في الخطاب القصصي القرآني ليعم قوما؛ فيورددهم في صيغة التنكير مكتفيا بأهم ما يتعلق بهم من صفات؛ كما يظهر لنا ذلك في بعض أحداث قصة ذي القرنين: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} (٣٥).

٥- التعبير الجمعي:

مما يلاحظ في الخطاب القصصي القرآني توجهه إلى التعبير الجمعي في حال التواطؤ على العمل، على ما هو معروف في الخطابات القرآنية (٣٦)، وهذا ما تطالعنا به الخطابات القرآنية المتمثلة في الحديث عن الأفراد المشتركين في عمل، أو الذين تربطهم آصرة قرابة، أو تضمهم منطقة جغرافية محددة، فمن ذلك جامعة العمل المشترك في قوله تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} (٣٧)، ومنه جامعة الأخوة في قوله سبحانه: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ

(٣٣) سورة يوسف: ٧٠

(٣٤) سورة يوسف: ١٠

(٣٥) سورة الكهف: ٩٣

(٣٦) ينظر مثلاً: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥ / ٤٨٨

(٣٧) سورة القلم: ١٧

مُنْكَرُونَ } (٣٨)، و منه الرابط الجغرافي في قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا
الْمُرْسَلُونَ} (٣٩).

(٣٨) سورة يوسف: ٥٨

(٣٩) سورة يس: ١٣

الفصل الثاني: الصورة في الخطاب القصصي في قصة صاحب الجنتين

المبحث الأول: الجوانب الفنية في الخطاب القصصي

يحسن بي أن أثبت نص الآيات الكريمة محل الدراسة؛ في مطلع هذا الفصل؛ وهو قوله تعالى في شأن صاحب الجنتين: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤){(٤٠)}.

من أبرز ما يدخل في الجانب الفني في الخطاب القصصي في قصة صاحب الجنتين ما

يلي:

١ - الإبهام في أشخاص القصة:

ذلك أن الخطاب القصصي هنا لم يسمنا أيًا من الرجلين، بل اكتفى التعبير بكونهما (رجلين)، وبالتخصيص بأن المبتلى هو (أحدهما)، إذًا فالسياق يتوجه إلى ما يعني المتلقي

من أخذ العبرة من إيراد القصة، من حيث أثر الكفر والطغيان على ذي النعمة الذي لم يرعها حق رعايتها، ولم يولها شكرها اللائق بها، دون الانشغال باسمه أو اسم صاحبه، وماذا عسانا نستفيد إذا وقفنا على اسمه، أو اسم أبيه وجدّه؟! وهذا من عادات القرآن وسنن الخطاب فيه، الانصراف إلى المغزى والهدف دون الانشغال بأي شاغل عن ذلك الجوهر، وتلك الفحوى، فالهدف هو "الاقتصار في سوق القصص على المقصود بذكر الأجزاء التي تخدم الهدف، وطبيّ الفصول التي لا تخدم الغرض الأساسي من القصة" (٤١).

٢- تنوع الإسناد:

من الظواهر الفنية في هذا الخطاب القصصي محل الدراسة هنا ما زخر به من الاصطفاء اللفظي لألفاظ قرآنية ذات جمال وبهاء، مسندة إلى الله تعالى، حتى غدت شامة بين الألفاظ؛ بما تحمله من دلالات على المنعم سبحانه، لا سيما وأن سبب ظلم الرجل لنفسه هو جحوده إسناد تلك النعم إلى الله جل جلاله، وظاهرة الإسناد الجليلة هذه تصحبنا منذ بدء الخطاب القصصي هنا إلى ختامه؛ ففي مطلع هذا الخطاب نرى الإسناد الأبهى في قوله تعالى: {جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ}، فالله تعالى هو الذي جعل الجنتين، وأوجدهما بادئ ذي بدء، ثم يستمر هذا الإسناد الجليل في نسق متتابع متقارب، معزّراً صورة الإِنعام في نسبتها إلى المنعم الحق الله سبحانه؛ فيأتينا إسنادان لفعلين من أفعال اللوازم الزراعية لمثل تلك البيئة الحية في هذا الخطاب القصصي؛ وذلك في قوله تعالى: {وَحَفَقْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا}.

ومن أظهر الدلالات الإسنادية إلى الله تعالى ما يأتي على لسان الصاحب المؤمن في معرض إنكاره على صاحبه الظالم لنفسه من تذكيره بمراحل نموه، وتنقله في الخلق طوراً فطوراً: {خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا}، فالله هو الذي خلق من تراب، وهو الذي خلق النطفة، وهو الذي سوى هذا الخلق رجلاً.

ومن منظور آخر يطالعنا الخطاب القصصي بألفاظ مسندة إلى غير الله تعالى؛ مما يُدخلها في المستوى الثاني من مستويات الخطاب؛ وهو الخطاب المجازي؛ في نحو قوله تعالى: {كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا

(٤١) عادات القرآن الأسلوبية: ٥٣٦

وَمَا تَظْلِمُ مِنْهُ شَيْئًا}، فالإتيان بالأكل مسند إلى الجنتين ذاتيهما، وعدم الظلم والنقصان من الأكل منفي أن تقوم به الجنتان نفساهما. ومن الإسناد المجازي كذلك ما يطالعنا به الخطاب القصصي في قوله تعالى: {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}، فنفيد الزوال والذهاب والإبادة جاء مسندًا إلى الجنة في اعتقاد صاحبها(٤٢).

٣- الصور البيانية الناطقة:

يشعر المتلقي لهذا الخطاب القصصي القرآني الراقى أنه يرى أمام عينيه تلك الجنتين الخضراوين، وعرائش العنب قد ملأت المكان، والنخيل الباسقات قد حقت بكلتا الجنتين من جوانبهما، مع الزروع البينية التي تحارب كل تصحر، وتستبدل به خضرة غناء.

مع سماع المتلقي خرير الماء، وهدير النهر الذي يمحى بعبابه متوسط الجنتين، لئلا تستأثر بمعينه إحداها دون الأخرى، فالنهر قد جعله الله {خِلاَّهُمَا}.

وهاتان الجنتان ذواتا ثمر تعود ملكيته لصاحب هاتين الجنتين؛ بدلالة الوظيفية الأسلوبية للنسبة له بلام الملكية {كان له}، فالثمر له، يستمتع به، ويجوز كامل ملكيته.

وتنتقل بنا الصورة البيانية من خلال السياق القرآني القصصي إلى النفس المتعالية بكثرة المال، والاعتزاز والتقوي بالأتباع؛ {أكثر منك مالا وأعز نفرا}.

مع تجلية الصورة الفنية الناطقة لحالة الدخول المصاحب للزهو والداعي له؛ إذ إن حالة الدخول على الممتلكات عادة سبب لرؤية الذات، والتكبر عند الإنسان الذي لا يرجع الفضل لربه تعالى؛ {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ} تلازم الدخول والظلم للنفس؛ بواسطة الحال الملازمة لصاحبها في التعبير بالجملة الحالية {وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}.

(٤٢) موضع إحالة إلى مصدر أو أكثر في كتب التفسير البلاغي مع النقل عنها

وترحل الصورة الفنية بالمتلقي إلى رحلة في أعماق النفس الطاغية الظالمة؛ فتكشف لنا عن اعتقاد خاطئ؛ وهو اعتقاد الخلود لمتاعٍ فإن من متاع الدنيا الزائلة، إذ نفى صاحب الجنتين في اعتقاده المريض انتهاء عمر الجنتين، وخراب عمارهما.

وإذا بالصورة تختتم في إطلالة معبّرة عن البون الشاسع بين الحال والمآل، إذ نكاد نقف أثناء تلقينا هذا الخطاب القرآني، نكاد نقف وقوفاً حسياً على جنة حالها المزري أنها {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}، ونحن لا نملك إلا نملاً أعيننا بنظرة الاعتبار لرجل طاغ ظالم قد انكسر فيه كل معاني القوة، وتلاشت عنه كل مقومات الطغيان، ولم يبق في يديه إلا كفي يديه يقبلهما؛ تحسراً وندماً، واستحضاراً للنفقات التي أرهقته في مصروفاته التي كان يقتطعها لإصلاح شأن تلك الجنتين، فذهبت الجنتان، وذهب معهما {أَنْفَقَ فِيهَا}.

٤ - التقابل المعنوي:

مما يزخر به الخطاب القصصي في هذه الواقعة القصصية؛ -بل ربما أنه أسُّ هذا الخطاب- ظاهرة التقابل المعنوي بين العديد من الحالات الواردة في الخطاب، ومن ذلك:

أ) التقابل بين الجنتين حال عمارهما وحال خرابهما:

تؤدي الوظيفة التقابلية هنا أدق الأداء، وأكمله فبيننا نحن أمام الخطاب الذي يصور لنا جنتين عامرتين بكل ما تحمله كلمة العمار من معنى إلى صورة ملؤها الخراب والخلو والدمار؛ فنحن نطرب لهاتين الجنتين: {جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعاً (٣٢) كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا}، ثم تكاد قلوبنا تنخلع من تصور الجنتين الخربتين، ذلك التصور المائل أمامنا بأبرع التصوير الفني عبر الخطاب القصصي القرآني الدقيق الذي ينقلنا من جنتي أعناب محفوفتين بنخل، يتدفق خلالهما نهر، إلى جنة أصبح صعيدها زلقاً، وصعب على صاحبها طلب الماء الذي أصبح غوراً؛ وقد: {أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}.

ب) التقابل بين القولين حال الدخول والخروج:

ومن التقابل المعنوي ما نراه في الخطاب القصصي القرآني الذي صوّر لنا حال الرجل الظالم لنفسه وقت دخوله جنته وقد علاه الكبر، وطغى عليه الزهو، وخالط العجب شغافه، حتى باشر معتقداته، فأخرج مكنونه حين: {قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)}، ثم يأتي في ختام ذلك الخطاب بالصورة المقابلة التي تسمعنا ألفاظه النادمة، وصوته المتهدج المتمني عدم التفريط فيما سبق: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢)}؛ فليس ثمَّ إلا تقليب الكفين والتمني بأم أدوات التمني (ليت)!

ت) التقابل بين الكثرة والعزة وبين القلة والذلة:

وتستمر الوظيفة التقابلية في أداء دورها على أتم الوجوه، وأحسنها، وأوفاهها؛ حين يبين لنا الخطاب القصصي التقابل بين صورة التكاثر والتباهي به مالا والطغيان والاعتزاز بالأتباع الذين يحيطون به، وينفرون معه، ويصاحبونه؛ {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}، وبين صورة هلاك المال، وتفرق الأتباع؛ فقد ذهب كل: {مَا أَنفَقَ فِيهَا} لأنها اليوم {خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا}، وأمّا الأتباع، والغنم من الناس فالتفرق هو حالهم، والتشرذم مآلهم والحال ساعته أنه: {لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا}.

ث) التقابل بين حالي الماء المتدفق والغائر:

ومن جماليات التقابل في الخطاب القصصي القرآني تلك الصورة التي نكاد نعايشها معاشة، ونحن نراها ماثلة أمامنا، نشعر بها ملء السمع والبصر نهرًا متفجّرًا خلال هاتين الجننتين، نهرًا نرى تموجه، ونسمع هديره، ونتذوق عذوبة مائه، نهرًا جاريا ماءً طهورًا، تلك الصورة المعبر عنها بقوله تعالى: {وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا}، وفي المقابل يطالعنا الخطاب القرآني بتشخيص صورة مخيفة قائمة لماء غائرٍ بعيد قعره، صعب على طالبه نواله، مع الحاجة الملحة له؛ حتى غدا ذلك الرجل الظالم لنفسه أمام حقيقة لم تكن لتخطر على باله؛ إذ لم يدُر في خلده حال ظلمه لنفسه أن جنته سوف {يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا} وما أبعد الماء الغائر عن

طالب حتى إنَّ حاله ستؤول إلى اليأس؛ وها هو نصَّ الخطاب القرآني يعلنها {لَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ
طَلْبًا}. ويا لله ما أشدَّ ألم صاحب جنة قد صار {ماؤها غُورًا}؛ صار قوامها بوارا، وسبيل
حياتها منقطعاً.

ج) التقابل بين الاتكال على الأسباب وعلى خالقها:

يجلِّي لنا الخطاب القصصي القرآني هنا اعتماد الظالم على الأسباب المادية؛ الكثرة مالا،
والعزة نفراً، ونسيان مسببها وخالقها الله تعالى؛ فتباهى متعالياً بـ(الأنا) صارخاً في وجه صاحبه
{أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}، فالحديث المتعالي عن الأنا صاحب النعمة ونسيان مسدي
النعمة الله جل جلاله، وهنا تحسن الوظيفية الدلالية للتقابل؛ إذ يبرز الخطاب صورة مؤمن
صادق متواضع ليس بكثير المال ولا الولد ككثرة صاحبه؛ لكنه أكثر غناءً بإرجاع النعم إلى
المنعم، والاتكال عليه ورجائه سبحانه أن يؤتيه خيراً مما آتى صاحبه الظالم لنفسه: {إِنَّ تَرَنِ
أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا}، هنا تتجلى روعة الإضائي في
تركيب {رَبِّي}، إذ إنَّ الربَّ لن يخذل عبده المتوكل عليه الراجي عطاءه.

ح) التقابل بين ملكية الثمر ونزعها:

ومن المقابلات المؤثرة الواردة في هذا الخطاب القرآني تلك المقابلة بين ملكية صاحب الجنتين
للثمر ملكية مطلقة؛ بمعونة اللام من حيث القانون النحوي الدال على الملكية (٤٣)، {وَكَانَ لَهُ
ثَمْرٌ}، الثمر له، يملكه ملكاً خاصاً، وهو الذي أدى به مع بريق جنته إلى الكفر بالله تعالى كفراً
حمل صاحبه المؤمن على الاستفهام المنكر المشفق: {أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ
ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}؟ هذه صورة يقابلها الخطاب القصصي بصورة أخرى تنقلنا من حال الملكية
المطلقة للثمر إلى صورة إخاء تلك الملكية تماماً؛ حيث {أُحِيطَ بِثَمَرِهِ}؛ فانتقل في هذه المقابلة
التصويرية من ملك كل شيء في الثمر إلى نزع كل شيء من ذلك الثمر؛ وأي نزع أشدَّ من التعبير
بالإحاطة؟!!

(٤٣) موضع إحالة إلى مصدر أو أكثر في النحو باب الإضافة

المبحث الثاني: آليات الحجاج، والجوانب الوظيفية في الخطاب القصصي.

مما تميزت به سورة الكهف عامة قيامها على لغة الحوار المبنية على مجموعة من البراهين والحجج الكفيلة بإحداث تفاعل إيجابي بين المتحاورين، وهذا مما يسهم في تسهيل عملية التبليغ والتواصل فيما بينهم، مما يؤدي إلى الإقناع المراد (٤٤).

ومن آليات الحجاج الواردة في هذا الخطاب القصصي ما نراه من الحوار الصريح المنصوص عليه بمادته [ح و ر] (٤٥). مشتقا منها صيغة التفاعل مع الاستعانة بصيغة المضارعة الدالة على استحضار الصورة الماضية، لأنّ "من أغراض التعبير عن الماضي بلفظ المضارع... إفادة الاستمرار فيما مضى" (٤٦)؛ حتى كأن المحاوره الماضية ماثلة للعيان بادية أمام المتلقي لذلك الخطاب، وهو ما يطالعنا في قوله تعالى: {فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}، فنحن أمام مشهد حيّ واقعي؛ متمثل في آلية حجاجية حوارية، فالصاحب يحاور صاحبه؛ لإقناعه بمظاهر قوته في موازينه المادية؛ الكثرة في المال، والعزة في الأتباع.

ومما يطالعنا به الخطاب القصصي القرآني في حجاج الصاحب الظالم لنفسه ما أعلن من معتقداته الباطلة في زعمه الخلود له ولجنته، وإنكاره البعث، وجوده قيام الساعة، وكل هذا الحشد الفاسد تبدى في محاولة من هذا الظالم لنفسه إقناع صاحبه المحاور بحقيقة {قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}.

(٤٤) ينظر: الأفعال الكلامية في سورة الكهف دراسة تداولية: ١٤٩

(٤٥) ينظر-مثلا- العين (حَوْر)

(٤٦) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٢١٤

وفي الحجاج المقابل؛ يقوم صاحب المؤمن الناصح برّد الحجة بحجة أخرى، ويفنّد الشبهة بما يدحضها، في منطقٍ عقلي مُفجّم: { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا }، مستنكرًا على صاحبه كُفْرَه بالخالق سبحانه، مقوِّيًا الرّدّ بالنص على التدرج في الخلق، في مقابلة بديعة بين ما ادّعاه الظالم لنفسه من القوة الفانية، وبين الحقيقة الماثلة في مراحل الخلق: التراب والنطفة، واكتمال الخلق بالتسوية رجلاً.

ثم يتدرج الخطاب القصصي القرآني في علو وتيرة الحجاج بقمع صاحب المؤمن صاحبه بتقديم معتقده الصحيح أما معتقد صاحبه الفاسد، مبدئيًا له ذلك المعتقد في معرض الافتخار والاعتراف بنعمة الرب سبحانه، مظهرًا ذلك عبر الوظيفة النحوية للاستدراك بالحرف (لكن) (٤٧)، فأنت أيها صاحب على أي اعتقاد فاسدٍ كنت أظن أنا متمسكًا بمعتدي السليم المؤمن بالربّ إلها دون أن أدنّس اعتقادي الطاهر هذا باتخاذ الشريك مع الله تعالى: { لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا }، لن أشرك بربيّ أحدًا، خاصة أن أصل { لَكِنَّا } بهذا التركيب "وَلَكِنَّا أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي" (٤٨)، وقد ازداد علو الخطاب الحجاجي بمعونة التنكير؛ ليعم النفي كل ما يُشرك به مع الله تعالى (٤٩)، مما يُتصور أن يُتخذ شريكًا مع الله جل جلاله، وذلك يتناسب مع القوم المنزّل عليهم هذا الخطاب زمن النبوة؛ حيث " جاء لتقرير عقائد أساسية قامت عليها الدعوة الإسلامية في العهد المكي؛ كتقرير الوحدانية، وإبطال دعوى الشريك مع الله سبحانه... " (٥٠).

(٤٧) ينظر مثلاً: حروف المعاني والصفات: ١٥

(٤٨) جامع البيان ١ / ١٢٤

(٤٩) ينظر مثلاً: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٢ / ١٠

(٥٠) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد النبوي (دراسة للأسلوب والموضوع): ٤٤١

وتبلغ وتيرة الحجاج مبلغاً أعلى بتوجيه الخطاب المباشر إلى المحاور مباشرة؛ ليعدّل من سلوكه، ويحسّن لفظه، ويرقى بمعتقده إلى الصواب نحو الله تعالى: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنًا أَقْلًا مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا}، فالمعتقد يجب أن يكون بإثبات المشيئة لله تعالى بمعونة الموصول؛ ذلك "أنّ الصّلة توضّح الموصول، كما تخصّص الصفة الموصوف" (٥١)، وبمعونة الإيجاز المركز، القائم على "إسقاط كلمة لدلالة فحوى الكلام عليها" (٥٢)؛ فالذي يشاء الله هو الذي يكون، ومن تصحيح المعتقد معاملة المحاور على النقيض بنفي حوله وقوته المزعومة المبنية على كثرة المال والتابع، وإثبات مطلق الحول والقوة لله تعالى وحده مقصوراً عليه دون ما سواه؛ بمعونة الطريق الاصطلاحية للقصر المعلومة في علم المعاني القائمة على ركني النفي والاستثناء (٥٣).

وبلغ الحجاج أوجه عندما يتخذ المحاور لغة التهديد، والتخويف، {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصَبِّحُ صَعِيدًا زَلَقًا} (٤٠) أو يُصَبِّحُ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا}، فالمسألة الآن تبدّل الموازين، وتغير الأحوال، والحصول على الخيرية في الجنة للصاحب المؤمن، وفي مقابل ذلك فالظالم لنفسه عسى أن تتحول جنته العامرة إلى بياب زلق، لا تمسك ماء، ولا تنبت شجرا، ولا تؤتي ثمراً، ولا يتوصل إلى مائها الغائر، البعيد قعره، المنعدم نفعه؛ لانعدام الحصول عليه ولو مع طلبه، كل هذه اللغة الحجاجية الدامغة كانت كفيلاً أن تهي الجوار الحجاجي الذي بدأه الظالم لنفسه محاجاً وانتهى به الحوار إلى الإذعان مع الخسران.

(٥١) شرح الأبيات المشكّلة الإعراب: ٤١٧

(٥٢) ينظر مثلاً: سر الفصاحة: ٢١١، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ١/ ٥٩١

(٥٣) ينظر مثلاً: الإيضاح في علوم البلاغة ٣/ ٢٣، و أساليب بلاغية: ١٨٠

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تيسر الأمور، وتسير إلى السرور والحبور، الحمد لله أن أكرمني بالوقوف على جانب من جوانب كتابه العزيز الذي قال الله تعالى فيه { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } (٥٤)، وقوفا مباركا من نافذة الخطاب القصصي القرآني، متشرفاً بالوقوف على جوانب من قصة صاحب الجنتين، من خلال ما برز في ذلك الخطاب من خصائص الخطاب القصصي القرآني، من حيث تنوع سياقاته، ومدى ما أثر ذلك التنوع في الخطاب القصصي القرآني، وأثر ذلك على الاصطفاء اللفظي، مع الحديث عن ظهور الصورة في الخطاب القصصي في قصة صاحب الجنتين، وإلقاء ظلال ذلك التأثير على الجوانب الفنية في الخطاب القصصي، مع بيان مدى توفر آليات الحجاج في ذلك الخطاب القصصي، والوقوف على الجوانب الوظيفية فيه.

وإنني في ختام هذ الخاتمة أوصي أن يقوم مشروع درس حجاجي مادته الرئيسة الخطاب القصصي القرآني لا غير. فإذا كانت هذه الورقات التي نختتم خاتمتها الآن قد وقفت على قصة واحدة من عشرات القصص القرآني، فكيف نحن بالقصص القرآنية كاملة، وما الذي يمكن أن يُصور في استجلاء مواقف الأنبياء الكرام الحجاجية مع أقوامهم المؤمنين، وخصومهم المكذابين، ومثل ذلك خطاب الملائكة عليهم السلام مع المرسلين، وحسبنا لنزداد قناعة بحجم المادة العلمية المتوقعة لهذا المشروع أن نقف على كلمة الفيروز آبادي في معرض حديثه عن عدد آي القرآن الكريم؛ إذ يقول: "قلت: ومن هذه الجملة ألف آية وستمئة آية في قصص الأنبياء" (٥٥).

(٥٤) سورة ص: ٢٩

(٥٥) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٥٦٠

وإني لأرى بعين الفأل الاستشرافية أن هذا المشروع سيكون ذا مادة علمية ثرية، وسيكون إثراء في المدرسة الحجاجية، من حيث أصالة المدونة، ومن حيث تنوعها، وألوان خطاباتها، وتعدد مستويات تلك الخطابات.

والله أسأل أن يكلل أعمالنا بالنجاح، وأن يتوّجها بالإخلاص، وأن يكتب لها القبول، وأن يجعل هذه الورقات نورا لكاتبها ولوالديه وأهله وذريته في الدنيا والآخرة، وأن يوصل ثوابها لأمي نورة رحمها الله في قبرها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

١- : الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الثالثة

٢- الإبانة الكبرى لابن بطة، أبو عبد الله عميد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض

٣- أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة - المعاني، أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، وكالة المطبوعات - الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م

٤- الأفعال الكلامية في سورة الكهف دراسة تداولية، (رسالة ماجستير)، أمينة لعرو، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها ٢٠١٠-٢٠١١ م

٥- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى الباي الحلبي وشركائه.

- ٦- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة
- ٧- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناي بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهرير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ
- ٨- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
- ٩- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ
- ١٠- تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد النبوي (دراسة للأسلوب والموضوع)، د. رجاء بنت صالح بن محمد البحر، مكتبة المتنبّي، الدمام - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م
- ١١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
- ١٢- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت

- ١٣- حروف المعاني والصفات، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي
النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم، تحقيق علي توفيق الحمد،
مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ م
- ١٤- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد
أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة
- ١٥- الرسائل الأدبية، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي،
أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة
الثانية، ١٤٢٣ هـ
- ١٦- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان
الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ-١٩٨٢م
- ١٧- السرد القرآني، خصائصه وتقنياته، د. علي سالم بيدق، المجلة
الجامعة، العدد السادس عشر، المجلد الثاني، أبريل- ٢٠١٤ م
- ١٨- شرح الأبيات المشككة الإعراب، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار
الفراسي الأصل، أبو علي، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد
الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ
١٩٨٨ م
- ١٩- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي
الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه:
الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريره
أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية بومباي -

- الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار
السلفية بيومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م
- ٢٠- الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن
يحيى بن مهران العسكري، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو
الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت، ١٤١٩ هـ
- ٢١- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن
علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبي الملقب بالمؤيد بالله،
المكتبة العنصرية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ
- ٢٢- عادات القرآن الأسلوبية، دراسة تطبيقية، راشد بن حمود الشنيان،
الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ-٢٠١١م
- ٢٣- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بن عبد
الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، تحقيق: الدكتور عبد
الحميد هنداوي، المكتبة العنصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان،
الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م
- ٢٤- عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار
الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨ هـ
- ٢٥- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم
الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم
السامرائي، دار ومكتبة الهلال
- ٢٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن
غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق

عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت،

الطبعة الأولى - ١٤٢٢ هـ

٢٧- معجم السرديات، محمد القاضي، ومحمد الخبو، وأحمد السماوي،

ومحمد نجيب العمامي، وعلي عبيد، ونور الدين بنخود، وفتحي

النصري، ومحمد آيت ميهوت، إشراف محمد القاضي، الرابطة

الدولية للناشرين المستقلين، دار محمد علي للنشر - تونس، ودار

الفارابي - لبنان، ومؤسسة الانتشار العربي - لبنان، ودار تالة-

الجزائر، ودار العين-مصر، ودار الملتقى-المغرب،

الطبعة الأولى ٢٠١٠

٢٨- معجم الشيوخ، ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله

المعروف بابن عساكر، تحقيق: الدكتورة وفاء تقي الدين، دار

البشائر - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م